مشيئة الله ودفع ما يتوهم من تناقض

آيات القرآن فيها جوابا لسؤال عن إشكال

ورد لنا من دمشق الشام

(وهذا متمم لموضوع القضاء والقدر المذكور في الجزء الثاني)

جاءني سال ضمن تجرير من الأستاذ الفاضل الشيخ توفيق البزرة من علماء دمشق الشام هذا نصه:_ حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الله القيشاوي حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبدي أنه وصلني جوابكم عن آية التيمم وقد قرأته بابتهاج وسرور وأطلعت عليه كثيرا من أصدقائي كالشيخ حامد التقي وأمثاله فلم يكن منهم إلا الموافقة والإعجاب، وكذلك سرنا استطرادكم بالمناسبة لوجوب الوضوء عند إرادة الصلاة لكل فريضة أبقاكم الله لنا ذخرا. والآن أرجو أن تتفضلوا بالجواب عن قوله تعالى في سورة الأنعام ١٤٨ (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) حيث ذكر تعالى أن التعليق بالمشيئة هو قول المشركين وإنهم كاذبون في دعواهم وإنهم لا علم لهم بذلك وليس عندهم إلا الظن الذي لا يغني عن الحق شيئا. وتراه جل شأنه قد جعل ذلك من المعتقدات الدينية التي يجب تسليمها لأول وهلة، فقال في تلك السورة: (ولو شاء الله ما فعلوه) (ولو شاء ربك ما فعلوه) (ولو شاء لهاكم أجمعين). أرجوكم الجواب الشافي كما تعودت من حرية أفكاركم ، ودمتم.

١٦ ذي القعدة سنة ١٣٥٤ هـ

أمضاء (توفيق البزرة)

جوابي عن هذا الإشكال وما أفهمه في

وجه رفع التناقض بين هذه الآيات مع

بيان المراد من مشيئة الله تعالى

لفعل العبد

إن معنى قول المشركين (لو شاء الله ما أشركنا) أي أن أشركنا إنما كان بمشيئة الله تعالى وإرادته وقضائه وقدره أي فنحن مسيرون لا مخيرون ولو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا. ومعنى قوله تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) أي كذلك كذب المشركون السابقون رسلهم فيطلبهم منهم عدم الإشراك بالله بدعوى أن الله قد شاء لهم الإشراك وقدره عليهم وأن الله لا يطلب من الناس ترك أمر قد شاءه لهم وقدره عليهم وجبرهم عليه (فذاقوا بأسنا) بسبب هذا التكذيب وهذه الدعوة الباطلة. فأنتم أيها المشركون الحاضرون لا بد وأن تذوقوا بأسنا كما ذاقوه بسبب هذا التكذيب وادعاء أنكم مسيرون في

أعمالكم لا مخيرون فيها. ثم رد الله عليهم ردا عقليا في ذلك بقوله: (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون الظن وإن أنتم إلا تخرصون) أي هل كان عندكم علم وقت أن أشركتم بأني شئت لكم هذا الإشراك واردته لكم وقدرته عليكم حتى تعتذروا بذلك وتدعوا أن إشراككم إنما كان وفقا لإرادتي ومشيئتي؟ فإن كان عندكم علم بذلك فبينوه لنا وأخرجوه. وحيث أنكم لا تقدرون على ذلك فأنتم حينئذ لا تتبعون في ذلك إلا الظن ولا تخرصون فيه إلا خرصا –أي تخمينا-.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يصح لكم بعد أن تفعلوا الشيء بمجرد اختياركم وإرادتكم بدون عليم بأي إجبار من الله تعالى وبدون مشاهدة لأي إكراه منه تعتذروا بأن ما فعلتموه لم تكونوا مختارين فيه بدعوى أن الله قد أراده وشاءه لكم وإن مشيئة الله لا تتخلف، فإن مثل هذه الدعوى لا تقبل إلا ممن اطلع على الغيب وعلم قبل أن يفعل الفعل إن الله قد أراد له هذا الفعل وشاءه وهذا ما لا يقدر عليه أحد. فهذه الحجة العقلية البالغة التي أقامها الله على المشركين، حيث قال عقب هذه الآية: (قل فلله الحجة البالغة). ومن هذا يتبين أن الله تعالى ما أراد بقوله (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) أن يرد عليهم في دعواهم أن إشراكهم كان بمشيئة الله حتى يناقض قوله (ولو شاء الله ما فعلوه).

وإنما أراد أن يرد عليهم بأن مشيئة الله لذلك لم تكن معلومة لهم وقت إشراكهم حتى يستندوا عليها ويعتذروا بها. فكون الإشراك حاصلا بمشيئة الله تعالى شيء. والعلم بمشيئة الله لهذا الإشراك وقت حصوله شيء آخر والله تعالى إنما نفى علمهم بذلك ولم ينف كون الإشراك بمشيئته ونفى العلم بالشيء لا يستلزم نفي ذلك الشيء.

وعلى هذا فلا تناقض أصلا ولا تعارض أبدا بين هذه الآية وقوله تعالى (ولو شاء الله ما فعلوه) وقوله: (ولو شاء ربك ما فعلوه) وقوله (فلو شاء لهداكم أجمعين) لأن الحقيقة والواقع أن كل ما يحصل في الكون من حركة أو سكون ومن طاعة ومعصية، ومن إيمان وشرك، إنما هو بمشيئة الله تعالى وإرادته كما هو صريح هذه الآيات التي ذكرتموها وكما هو صريح قوله أيضا: (ولو شاء الله ما أشركوا) فإن هذه الآية أصرح من كل الآيات التي ذكرتموها لما فيها من التصريح بنفس ما ادعاه المشركون في قولهم (ولو شاء الله ما أشركنا) وحينئذ فقول المشركين هذا صادق من حيثية وكاذب من حيثية أخرى: فهو صادق من حيث ذاته بقطع النظر عما قصدوا به وكاذب من حيثية أنهم أرادوا به أنهم حين إشراكهم كانوا مجبورين على هذا الإشراك بدعوى أن الله تعالى قد شاءه لهم، وقضاه وقدره عليهم، فأراد الله تعالى أن يكذبهم في هذا القول من هذه الحيثية بأنه لا يمكنهم أن يعلموا مشيئة الله حتى يرتكزوا عليها ويعتذروا عن أنفسهم بها، وأن يبين أن إشراكهم كان بمحض اختيارهم لا باستنادهم على علم بما في هذا الموضوع وهذا لا ينافى أصلا أنه لا يقع في ملكه إلا ما يريده وأن كل شيء في الكون لا يحصل إلا بمشيئته تعالى وإرادته. ولكن الخلاف بين الناس في أنه حينما يفعل الإنسان الفعل هل يكون مجبرا على ما فعله بسبب هذه المشيئة والإرادة أم لا؟ فالمشركون وقسم كبير من المسلمين وهم الجبرية يقولون أن العبد مسير لا مخير، وأنه مجبور على فعل نفسه بسبب سبق إرادة الله تعالى ومشيئته لهذا الفعل فرد الله عليهم في هذه الآية بأنه لا يمكن لأي إنسان ما أن يعلم ويتحقق قبل أن يفعل الشيء بأن إرادتي ومشيئتي متعلقة بإيجاب هذا الفعل أو بسلبه حتى يدعي أنه مجبور على ما تعلقت به إرادتي بل كل إنسان إنما هو مختار في فعله غير مكروه عليه بالبداهة والضرورة لأنني لا اسلب أحدا اختياره وقت الفعل وإلا لما استحق عقابا على القبيح ولا ثوابا على المليح. بل خلقت فيه القوة والاختيار لأيهما شاء فمن أين يعلم أن إرادتي سبقت إرادته وأن مشيئتي جبرته وقهرته على هذا الفعل حتى يتعلل بذلك ويتخلص به من المسئولية أيضا أمامي. وقد صرح الله بهذا المعنى في غير هذه الآية بقوله تعالى في سورة الزخرف: (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم به من علم إن هم إلا يخرصون) فأنت ترى أن آيات القرآن إنما هي منصبة على نفي العلم بمشيئة الله لا على نفي المشيئة نفسها وإلا لقال إن الله لن يشاء ذلك بدل قوله (ما لهم بذلك من علم).

وهذا الحال بهذه الكيفية لم أره لأحد من المفسرين.

وعلى ذلك فقولكم في سؤالكم: (وتراه جل شأنه جعل ذلك من المعتقدات الدينية التي يجب تسليمها لأول وهلة) لا يرد على ذلك أصلا لأن الذي هو من المعتقدات الدينية إنما هو وجود مشيئة الله لا علم الناس بماذا تعلقت هذه المشيئة هل بإيجاب الفعل أم بسلبه؟

مشيئة الله وإرادته لكل ما يحصل في العالم التي من جملتها أفعال العباد لا تنافي أن هذه الأفعال إنما تحصل بمشيئة وإرادة العبد أيضا

إن وجود مشيئة الله وإرادته في كل شيء من الأشياء التي من جملتها أفعال العباد لا ينافي أن هذه الأفعال إنما هي تحصل بمشيئة وإرادة العبد أيضا كما هو صريح قوله تعالى: (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) وقوله: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الصريحة في أن أفعال العباد وإن كانت كلها بمشيئة الله إلا أنها لا تحصل إلا بمشيئتهم أيضا من غير تناقض في ذلك.

وتوضيحه أن مشيئة الله إنما تكون حسب سننه تعالى التي أقام بها أمر النظام في خلقه بحيث يكون من العبد مشيئته الخاصة وإرادته الجزئية وكسبه الخصوصي –أي يكون منه العمل النفسي والبدني ويكون من الله آلات هذه العمل- أي القوى العقلية التي تشاء وتريد، والقوى البدنية التي تكسب وتعمل –فالله تعالى قد خلق الإنسان مستعدا لفعل الخير والشر والحق والباطل والإيمان والكفر والتوحيد والشرك ومختارا في سلوك كل من الطريقين كما قال تعالى (وهديناه النجدين) وحينئذ فالذي شاء الفعل مباشرة إنما هو الإنسان وإن كانت مشيئته لم تخرج عن مشيئة الله تعالى لأنه هو الذي خلق له هذه المشيئة وهذا هو معنى قوله جل شأنه: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) أي أنكم لا تشاءون شيئا إلا بمشيئة الله التي خلقها فيكم وجعلها صفة لازمة لكم فلما شاء الله مشيئتكم التي تشاءون، وأردتم بها ما تريدون، ولولا ذلك لكنتم كالجمادات لا يمكن أن تشاءون شيئا وتريدوه.

ألا ترى كيف أسند الله إلينا المشيئة ونسبها لنا، وما سلبها عنا فقال (وما تشاءون) إذ لا معنى للمشيئة إلا الإرادة والاختيار وعليه فمشيئة الله تعالى للفعل هي بمعنى لا ينافي مشيئتنا لهذا الفعل ولا يعارضها لأن مشيئتنا متعلقة بنفس الفعل مباشرة. ومشيئة الله متعلقة به بواسطة مشيئتنا التي خلقها وأودعها فينا وشاءها لنا فأصبح الفعل كما أنه بمشيئتنا هو أيضا بمشيئة الله قبل مشيئتنا لأنه هو الذي خلق أولا لنا تلك المشيئة وخلق فينا الدواعي والميول للفعل وخلق لنا القوى التي شاءت وعملت الفعل وهو الذي جعلنا مختارين لهذا الفعل الذي اقتضت الحكمة حصوله. فنحن مختارون في أفعالنا وإن كنا غير مختارين في إيجاد صفة الاختيار التي خلقها الله فينا وحينئذ فكل ما يجري في الكون من أعمال البشر الاختيارية خيرها وشرها إنما هو جار بنظام وسنن حكيمة وكلها بمشيئة الله وتحت سلطانه إذ لا يعقل أن أفعال العباد التي قد تغير وجه الأرض كاختراعاتهم العظيمة ومحاربتهم لبعضهم فوق السحب وتحت اللجج إنما حصلت بإرادة بشرية خارجة عن سلطان إرادة الله العامة غير مندرجة فيها. إن إطلاق رصاصة واحدة من واحد يوغوسلافي على ولي عهد مملكة النمسا قد سبب حربا عالمية كبرى قلبت العالم رأسا على عقب ثم سببت حربا آخر أعظم وأشد كما هو حاصل الآن. فهل يجوز أن يقال أن كل ذلك وقع بإرادة العبد وقدرته فقط بدون إرادة الله وقدرته وهو الذي (لا يقع في ملكه إلا ما يشاء) وهو الخالق لكل شيء. أو هل يجوز أن يقال أن كل ذلك حصل بإرادة الله وقدرته فقط بدون إرادة العبد وقدرته التي باشرت العمل؟ كلا ثم كلا. وعليه فأفعال العباد كلها إنما هي بإرادة العبد وقدرته وبإرادة الله وقدرته أيضا على نحو ما فصلنا مما ليس فيه معارضة ولا مناقضة بين الإرادتين والقدرتين.

ومن الأمثلة التي تشابه ذلك تقريبا لا تحديدا أن تقول (بنى الأمير المدينة) مع أن الذي باشر فعل البناء هو البناء وكان وضع هذا الحجر على هذا الحجر بإرادته ومشيئته ولكن الأمير هو الذي أراد إنشاء هذه المدينة وكانت خارطتها وترتيب بنائها وشوارعها وطرقها ومنافعها بمشيئته، وكان شكلها وكيفيتها ومقدارها ونوع أحجارها وطينها بإرادته فنُسب بناؤها إليه من هذه الحيثية كما نسب إلي البناء أيضا من حيث مباشرة العمل الخاص به، فالبناء كان مختارا في بنائه وفي وضع الأحجار وترتيبها وإحكام وضعها وتنسيقها بالكيفية والشكل الذي يشاؤه ويريده. ولكن هل كان ما يفعله البناء خارجا عن إرادة الأمير ومشيئته وعن خارطته التي رسمها إليه (كلا) مع أن الأمير لم يجبره على وضع هذا الحجر دون ذاك ولا على وضع هذا موضع ذاك، ولكن قد يسيء البناء في عمله فيعاقبه الأمير، وقد يحسن فيه تمام الإحسان فيكافئه عليه. وبهذا البيان يظهر معنى وكيفية اختيار ومشيئة العبد لأفعال نفسه، ويظهر أيضا معنى كون تلك الأفعال بمشيئة الله تعالى.

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى (ولو شاء الله فعلوه) (ولو شاء الله ما أشركوا) أي لو شاء الله عدم إشراكهم، وعدم فعلهم الشيء الذي فعلوه ما مكنهم الله من فعله ولا أقدرهم عليه بل يسلب منهم اختيارهم للشيء وينزع منهم استعدادهم إليه فلا يفعلوه، ولا يشركوا أي ولكن الله لا يشاء ذلك أبدا، لأن حكمته قد اقتضت أن يحصل في الكون كل ما هو حاصل بأن يشرك قوم ويوحد آخرون، ويعصي قوم ويطيع آخرون ويؤمن قوم ويكفر آخرون حتى يتم نظام العالم من كل وجوهه، ويحصل في الكون كل ما يمكن أن يحصل من عمل، وإلا فإنه لو شاء من أول الأمر أن لا يكفر أحد لما كفر، وأن لا يشرك أحد لما أشرك، وأن لا يعصي أحد لما عصى، وهذا معنى قوله تعالى: (ولو شاء الله لهدى الناس جميعا) (فلو شاء لهداكم أجمعين) (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) أي لو شاء الله هداية الناس جميعا، وإيمان وطاعة كل من في الأرض لفعل ذلك بأن يخلق فيهم الإيمان والهداية والطاعة خلقا، ويطبعهم عليها طبعا، ويجعلها سليقة لهم كالملائكة (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) بمقتضى خلقتهم وبحكم جبلهم ولكنه لم يشأ ذلك ولم يرده أبدا لأنه يخالف سنته التي سنها في خلقه ويناقض حكمته التي شاءها في بريته من جعل الإنسان مختارا في أفعاله غير مكروه على كفره وإيمانه، ولا على طاعته وعصيانه، وإلا لما كان مستحقا للعقاب ولا أهلا للثواب.

وعليه فيكون رد الله على المشركين في قولهم (ولو شاء الله ما أشركوا) بقوله (إن تتبعون إلا الظن) معناه إني لم أشأ لكم الإشراك مباشرة أن تتبعون إلا الظن الذي حصل لكم من كوني أنا الذي خلقت لكم القوى التي شاءت الإشراك وفعلته مع أن هذه القوى قد جعلتها صالحة للخير والشر، فأنتم الذين صرفتموها في الشرك فأشركتم بمشيئتكم واختياركم.

تحقيق القول في مذهب الجبرية والمعتزلة وأهل السنة

مع بيان أن لا خلاف حقيقيا بينهم لو نظر كل منهم

إلا ما نظر إليه الآخر وهو تحقيق حسن مفيد

إن الجبرية والمعتزلة وأهل السنة اختلفوا في كيفية ومقدار صرف العبد قدرته وإرادته واختياره في أفعاله، ونظرت كل فرقة منهم إلى حيثية وجنة معينة، وبنت عليها مذهبها، وأغفلت الحيثيات والجهات الأخرى التي لو نظرت إليها لما قالت مما قالته، ولأصبح لا خلاف بينها وبين غيرها من الفرق الأخرى.

فالجبرية نظرت إلى أن العبد ما دام قد خلقه الله بغريزة وجبلة وميول ونزعات تستدعي الشر مثلا، وأن الله أراد ذلك له وقدره عليه وخلق فيه الدواعي والميول إليه، فقد أصبح مجبورا على فعل ذلك الشر، ولكنهم لم ينظروا إلى أنه وإن كانت جبلته وميوله التي خلقها الله تستدعي الشر مثلا، إلا أنه قابل للخير أيضا بمكافحة تلك الغريزة ومخالفة تلك الميول لأن القوى التي خلقها الله فيه صالحة لكل من الخير والشر.

ألا ترى أن طحن الطحين مثلا في المطحنة مع كونها تدار بآلة ميكانيكية جبرية، فإنه لا يخرج عن كونه بإرادة ومشيئة صاحب المطحنة، لأن في إمكانه إيقاف حركة المطحنة في أي وقت شاء ومنعها من الطحن في أي وقت أراد.

وبالجملة، فإن الجبرية مهما تغالوا في عقيدتهم ومهما برهنوا على نظريتهم، لا يمكنهم أن ينكروا ما هو بديهي معلوم بالحس والوجدان من أن الإنسان يجد نفسه متمكنا من ترجيح الفعل على الترك وبالعكس.

وهم لم ينظروا أيضا إلى أن قضاء الله وقدره إنما كان مبنيا على عمله تعالى بما سيفعله الإنسان باختياره وإرادته فقدره عليه أي كتبه في لوح علمه (وعلم الله لا يتخلف) وأن ذلك العلم لا يجبر العبد على فعل نفسه لأنه انكشاف، والانكشاف لا يؤثر في المنكشف وحينئذ فالفعل الذي فعله العبد من خير أو شر فإنما فعله باختياره بدون أن تجبره تلك الغريزة والميول وبدون أن يجبره علم الله تعالى وتقديره كما يصرح بذلك قول جعفر الصادق رضي الله عنه (إن الله لم يجبر أحدا على معصية، ولا أراد الكفر من أحد، ولكن حين كفر كان في علم الله وإرادته أن يكفر) (أي علم أنه سيكفر فأراد الكفر له لعلمه بذلك فيه).

والمعتزلة نظرت إلى أن العبد وإن كان الله قد خلقه وخلق جميع قواه إلا أنه ما دام يفعل الفعل بقدرته وإرادته كما هو معلوم بالبداهة والوجدان فإنه هو الذي خلق أفعال نفسه الاختيارية كما يشير إلى ذلك قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) حيث أثبت أن لغيره خلقا أيضا ولكنهم لم ينظروا إلى أنه وإن كان العبد يفعل الفعل بقدرته واختياره إلا أن قوى هذا الاختيار مخلوقة لله تعالى أيضا كالقدرة على الفعل فهو وإن كان مختارا في فعله فإنه مجبور من حيث إيجاد قوة هذا الاختيار فيه وهو وإن كان فاعلا بقدرته إلا أن قدرته غير مؤثرة بذاتها بل يجعل الله لها مؤثرة فهي سبب من أسباب وجود الفعل لا موجة له والموجد الحقيقي هو الله كما قال تعالى: (والله خلقكم وما تعملون) حيث أنه في الوقت الذي نسب فيه الفعل إلى العبد بقوله (تفعلون) فإنه صرح بأنه هو الخالق له وحينئذ فلا تنافي بين أن يكون الفعل مخلوقا للعبد باختياره كما هو مذهب المعتزلة وبين كونه مخلوقا لله تعالى كما هو مذهب الجبرية ومذهب أهل السنة أيضا لأنه مخلوق للعبد مباشرة ومخلوق لله بواسطة خلق القدرة والاختيار في العبد اللذين بهما وجد الفعل.

كما أن مذهب المعتزلة لا ينافي مذهب الجبرية أيا، لأن المعتزلة وإن كانوا يقولون أن العبد يخلق أفعاله نفسه، وأنه مختار فيها لا يمكنهم أن ينكروا ما يقوله الجبرية من أن الإنسان فيه غرائز وميول مخلوقة لله تستدعي الفعل كمجبور عليه وإن لم يكن في الحقيقة مجبورا جبرا حقيقيا. وعليه فالإنسان مسير باعتبار، مخير باعتبار آخر لا أنه مسير غير مخير كما تزعم الجبرية ولا أنه مخير غير مسير كما تزعم المعتزلة بل هو مسير باعتبار ما يترتب على سير السنين الإلهية الكونية العامة التي خلقها الله في الكون، ومخير باعتبار ما خص الله به الإنسان من القوة الإرادية المختارة، والإنسان إنما يثاب ويعاقب على الأعمال الاختيارية لا على الأعمال الاضطرارية الناشئة عن سير السنن الكونية العامة التي لا تكون تحت سيطرة الإنسان والتي أرى أنها هي المرادة من قضاء الله وقدره. فالقضاء والقدر حسبما أفهم هو تنسيق سير المجاريات الطبيعية والسنن الإلهية الكونية التي ليست تحت سيطرة الإرادة الإنسانية، لأن الله وحده هو الذي قدر هذه السنن الطبيعية الكونية وعينها ورتبها ونظمها حسبما هي عليه الآن وحسبما مضى وما يأتي من الأزمان، وهو الذي قضى بتنفيذها في عموم الكون بما فيها إرادة الإنسان، وهي لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتحول (ولن تجد لسنة الله تبديلا) (ولن تجد لسنة الله تحويلا). وهذا هو المعقول الأقرب لمعنى القضاء والقدر، وعليه فالقضاء والقدر إنما يتحقق في الأمور التي لم يجعلها الله تحت تصرف العبد والتي هي ليست من أعماله ومجهوداته، لا ما اشتهر عند الناس من أن القضاء والقدر هو ما ليس له سبب، أو ما يفعله الله على خلاف النظام والسنن أو ما هو مقدر ومكتوب على الشخص في الأزل من خير أو شر لا يتغير ولا يتبدل مما أوقعهم في الارتباك والحيرة في فهم المعنى المراد من لفظ القضاء والقدر.

ولنرجع الآن إلى ما كنا نتكلم فيه من الجمع بين مذاهب الجبرية والمعتزلة وأهل السنة فأقول: لقد مضى الكلام في مذهب الجبرية والمعتزلة. وأما أهل السنة فإنهم نظروا إلى أن الله تعالى هو الذي يخلق كل شيء حتى أفعال العبد الاختيارية بنص قوله تعالى: (قل الله خالق كل شيء) (ذلكم ربكم خالق كل شيء) (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) (إنا كل شيء خلقناه بقدر) (لا إله إلا هو خالق كل شيء) (والله خلقكم وما تعملون). إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الصريحة في أن الله تعالى هو الذي يخلق أفعال العبد الاختيارية كما أنه خالق لغيرها. ثم أنهم نظروا أيضا إلى أن الله تعالى قد نسب الفعل إلى العبد في آيات كثيرة كقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها). (يوم تجد كل نفس ما علمت من خير محضرا وما عملت من سوء) (وأما من آمن وعمل صالحا فهل جزاءا الحسنى) (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) (فأصابهم سيئات ما عملوا) (لنذيقهم بعض الذي عملوا) (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) (ومن يفعل ذلك يلقى أثاما) (ولبئس ما كانوا يفعلون) (وبنبئهم بما كانوا يفعلون) (إنه خبير بما تفعلون) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تصرح بنسبة العمل والفعل إلى العبد فاضطر أهل السن إلى القول بأن الله هو الخالق لفعل العبد بمقتضى صريح الآيات الأخرى.

ولكن الكسب ليس هو مجرد مقارنة إرادة العبد وقدرته للعمل كما يقول أكثرهم بل هو كما قال المحققون من أنه ارتباط إرادة العبد وقدرته بالفعل ارتباط السبب بالمسبب ولمؤثر بالأثر، فإرادة العبد وقدرته هي آخر سلسلة أسباب الفعل التي يحصل بها ذلك الفعل، وحينئذ فإرادة العبد وقدرته هي الفاعلة للفعل مباشرة، وإرادة الله وقدرته هي الخالقة للسبب والمسبب والمؤثر والأثر. ولا أدل على ذلك وأصرح في من قوله تعالى: (والله خلقكم وما تعملون) كما أوضحنا. وعليه فلا تناقض أصلا ولا تعارض أبدا بين مذاهب الإسلام الثلاثة في هذا الموضوع لو نظر كل فريق منهم إلى ا نظر إليه الآخر.

من الأمثلة التي تقرب ذلك أن طحن الحبوب مثلا يمكنك أن تنسبه إلى المطحنة من حيث كونها مباشرة للطحن وأن تنسبه صاحب المطحنة من حيث أنه يديرها ويضع الحبوب فيها، وأن تنسبه إلى مخترع المطحنة لكونه هو الذي أوجد الآلة واخترع معداتها. فالشيء الواحد يصح أن ينسب إلى عدة ذوات من عدة حيثيات. هذا ما أراه حقا في هذا الموضوع.

أما من لم ير إمكان الجمع بين هذه المذاهب الإسلامية الثلاثة فيقول أن مذهب الجبرية هو الجبر المحض أي أن الإنسان ليس له أدنى قدرة، ولا إرادة ولا اختيار في شيء من الأشياء بل هو كالريشة المعلقة في الهواء يقلبها الله كيف شاء.

وأن مذهب المعتزلة هو التفويض الحض أي تفويض العبد في أفعال نفسه، أي أنه يفعلها بمحض قدرته ومحض إرادته الجزئية ولا تفتقر كل إرادة م العبد إلى مشيئة خاصة من الله توجب حدوثها بل يكفي في ذلك المشيئة العامة لجعله مريدا. فإن الإرادة هي حركة النفس والله سبحانه شاء أن تكون متحركة. وأما أن تكون كل حركة تستدعي مشيئة منفردة من الله فلا، كما أنه سبحانه شاء أن يكون الحي متنفسا ولا يفتقر كل نفس في أنفاسه إلى مشيئة خاصة منه تعالى.

وأن مذهب أهل السنة هو أنه (لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين) أي أن للإنسان إرادة وقدرة مقارنتين ومصاحبتين للفعل ولكن لا تأثير لهما فيه بل التأثير لإرادة الله وقدرته فقط. وهذه المقارنة المصاحبة تسمى عندهم كسبا. وتعلق المدح أو الذم بالإنسان في أفعاله على هذا المذهب إنما هو لكونه محلا ومظهرا لتلك الأفعال، لا لكونه فاعلها كما أن الإنسان يمدح لحسنه ويذم لقبحه مع أن شيئا منهما لم يكن أثر صنعه وإنما مناسبتها له مناسبة الحال للمحل. وأما لثواب والعقاب وترتبها على أفعال البشر فم يكن باستلزامها أيا منهما بل بمحض جريان عادة الله بترتيبهما عليها وذلك كوقوع الإحراق عند مماسة النار فإنه لا ينشأ من ذات النار وطبيعتها بل بمحض جريان سنة الله على خلق الإحراق عند ذلك. وهذا ما يتعلق بمذاهب المسلمين في هذا الموضوع. وهناك مذهب آخر لغير المسلمين يسمى مذهب الإيجابية ينطبق على مذهب الجبرية، وهو أن الإنسان مجبور في أفعاله بمقتضى ربطها بالأسباب والمرجحات الموجبة، وذلك مبني على ما قرروه من أن كمية القدرة في العالم مستقرة دائما لا تزيد أبدا، فلو كان اختيار العبد فاعلا لزادت كمية القوة في العالم ولفسد نظامه لأن دخول الاختيار الحر في حادثات الكون المرتبطة بعضها ببعض المنقادة حتما لنظامها يشبه دخول آلة حرة ذات إرادة مطلقة بين جهاز الآلة الميكانيكية المقيدة وهذا أمر لا جرم يفسد حركات تلك الآلة الميكانيكية ويخل بنظامها وحينئذ فوجود إرادة مطلقة واختيار حر للإنسان يفعل به ما يشاء يفسد نظام العالم الذي يشبه نظام الآلية الميكانيكية.

وإنني أجيب على ذلك بأن حركة الإنسان الاختيارية مهما كثرت ومهما كان نوعها لا يمكن أن تفسد نظام الكون بوجه من الوجوه ولا يمكن أن تعاكس حركته الميكانيكية العامة لأن حركات الإنسان الاختيارية إنما هي دائرة على نفسه كدوران الأرض على نفسها، فكما أن حركة الأرض على نفسها لا تمنعها من دوران آخر عام يربطها بباقي الأفلاك أو بباقي العوالم بحركة ميكانيكية فكذلك الإنسان وإن كان مرتبطا في العالم كله في دورة ميكانيكية واحدة إلا أن ذلك لا يمنعه أن يدور على نفسه بدورة كاملة أو حركة خاصة به لا تعرقل سير العالم ولا تفسد دورته أو حركته العامة.

وعلى ذلك، فإن أعمال الإنسان الاختيارية مهما عظمت كالحروب الكبيرة وكالقنابل المتفجرة حتى القنبلة الذرية التي هي بفعله فإنها لا تفسد نظام الكون ولا تعرقل مجراه الطبيعي، بل إن خراب الأرض بأجمعها وبمن فيها لا يفسد نظام الكون الأعظم لأن الأرض بمن عليها ليست إلا كذرة واحدة بنسبة مخلوقات الله التي لا تتناهى فذهاب شيء متناه لا يؤثر في غير متناه أبدا.

وبالجملة فإن إرادة الله ومشيئته العامة لكل ما في الكون بما فيهم الإنسان لا تسلب إرادة الإنسان ومشيئته الخاصة به رغم مذهب الإيجابيين والجبريين، فإنهم مهما برهنوا على نظريتهم فإنهم لا يمكنهم أبدا أن ينكروا ما هو بديهي معلوم بالحس والوجدان من أن الإنسان يجد نفسه متمكنا من ترجيح الفعل على الترك وبالعكس. ومن ترجيح الخير على الشر وبالعكس، كما أن إرادة الإنسان الحرة ومشيئته الخاصة وأعماله الكبيرة مهما كثرت وعظمت لا تفسد نظام الكون ولا تعرقل سيره الطبيعي ولا تخالف مشيئة الله وإرادته ولا تحول سنته الجارية في خلقه: (ولن تجد لسنة الله تحويلا). انتهى مفصل جوابنا عن استشكال الشيخ توفيق البزرة أحد علماء دمشق الشام في هذا الموضوع والله اعلم بحقائق الأمور.